

التحرير والتنوير

واستأنف مرتقيا في الجواب فبين استحالة عودهم إلى ملة الكفر بأن العود إليها يستلزم كذبه فيما بلغه عن الله تعالى من إرساله إليهم بالتوحيد ذلك كذب على الله عن عمد لأن الذي يرسله الله لا يرجع إلى الكفر ويستلزم كذب الذين آمنوا به على الله حيث أيقنوا بأن شعيبا مبعوث من الله بما دلهم على ذلك من الدلائل ولذلك جاء بضمير المتكلم المشارك في كل من قوله (افترينا) و (عدنا) و (نجانا) و (نعود) و (ربنا) و (توكلنا) .

والربط بين الشرط وجوابه ربط التبيين والانكشاف لأنه لا يصح تعليق حصول الافتراء بالعود في ملة قومه فإن الافتراء المفروض بهذا المعنى سابق متحقق وإنما يكشفه رجوعهم إلى ملة قومهم أي إن يقع عودنا في ملتكم فقد تبين أننا افترينا على الله كذبا فالماضي في قوله (افترينا) ماض حقيقي كما يقتضيه دخول (قد) عليه . وتقديمه على الشرط لأنه في الحالتين لا تقلبه (إن) للاستقبال أما الماضي الواقع شرطا ل (إن) في قوله (إن عدنا) فهو بمعنى المستقبل لأن (إن) تقلب الماضي للمستقبل عكس " لم " .

وقوله (بعد إذ نجانا الله منها) على هذا الوجه معناه : بعد إذ هدانا تاه للدين الحق الذي اتبعناه بالوحي فنجانا من الكفر فذكر هذا الإنجاء لدلالته على الاهتداء والإعلان بأن مفارقة الكفر نجاة فيكون في الكلام إيجاز حذف أو كناية .

وهذه البعدية ليست قيداً ل (افترينا) ولا هي موجب كون العودة في ملتهم دالا على كذبه في الرسالة بل هذه البعدية متعلقة ب (عدنا) يقصد منها تفضيع هذا العود وتأيس الكافرين من عود شعيب وأتباعه إلى ملة الكفر بخلاف حالهم الأولى قبل الأيمان فانهم يوصفون بالكفر لا بالافتراء إذ لم يظهر لهم وجه الحق ولذلك عقبه بقوله (وما يكون لنا أن نعود فيها) أي لأن ذلك لا يقصده العاقل فيلقى نفسه في الظلال والتعرض للعذاب .

وانتصاب (كذبا) على المفعولية المطلقة تأكيداً ل (افترينا) بما هو مساو له أو أعم منه وقد تقدم نظيره في قوله تعالى : (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب) في سورة المائدة .

وقد رتب على مقدمة لزوم الافتراء نتيجة تأيس قومه من أن يعود المؤمنون إلى ملة الكفر بقوله (وما يكون لنا أن نعود فيها) فنفي العود نفياً مؤكداً الجحد . وقد تقدم بيان تأكيد النفي بلام الجحد في قوله تعالى (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب) الخ في سورة آل عمران .

وقوله : (إلا أن يشاء الله ربنا) تأدب مع الله وتفويض أمر المؤمنين إليه أي : إلا أن يقدر

اﻟﻠﻪ ﻟﻨﺎ ﺍﻟﻌﻮﺩ ﻓﻲ ﻣﻠﺘﻜﻢ ﻓﺈﻧﻪ ﻻ ﻳﺴﺄﻝ ﻋﻤﺎ ﻓﻌﻞ ﻓﺄﻣﺎ ﻋﻮﺩ ﺍﻟﻤﺆﻣﻨﻴﻦ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﻜﻔﺮ ﻓﻤﻤﻜﻦ ﻓﻲ
ﺍﻟﻌﻘﻞ ﺣﺼﻮﻟﻪ ﻭﻟﻴﺲ ﻓﻲ ﺍﻟﺸﺮﻉ ﺍﺳﺘﺤﺎﻟﺘﻪ ﻭﺍﻻﺭﺗﺪﺍﺩ ﻭﻗﻊ ﻓﻲ ﻃﻮﺍﺋﻒ ﻣﻦ ﺃﻣﻢ .
ﻋﻦ ﺍﻟﻌﺼﻤﺔ ﺳﻠﺐ ﺍﻟﻠﻪ ﺷﺂ ﻓﻠﻮ ﻟﻼﻧﺒﻴﺎﺀ ﺷﺮﻋﺎ ﻣﺴﺘﺤﻴﻞ ﻓﻬﻮ ﺍﻟﻨﺒﻮﺓ ﺑﻌﺪ ﺷﻌﻴﺐ ﺍﺭﺗﺪﺍﺩ ﻭﺃﻣﺎ A E
ﺃﺣﺪ ﻣﻨﻬﻢ ﻟﻤﺎ ﺗﺮﺗﺐ ﻋﻠﻴﻪ ﻣﺤﺎﻝ ﻋﻘﻼ ﻭﻟﻜﻨﻪ ﻏﻴﺮ ﻣﻤﻜﻦ ﺷﺮﻋﺎ ﻭﻗﺪ ﻋﻠﻤﺖ ﺃﻧﻔﺎ ﻋﺼﻤﺔ ﺍﻟﺄﻧﺒﻴﺎﺀ ﻣﻦ
ﺍﻟﺸﺮﻙ ﻗﺒﻞ ﺍﻟﻨﺒﻮﺓ ﻓﻌﺼﻤﺘﻬﻢ ﻣﻨﻪ ﺑﻌﺪ ﺍﻟﻨﺒﻮﺓ ﺑﺎﻻﻭﻟﻰ ﻗﺎﻝ ﺗﻌﺎﻟﻰ : (ﻟﻨﻦ ﺃﺷﺮﻛﺖ ﻟﻴﺤﻴﻄﻦ ﻋﻤﻠﻚ
) ﻋﻠﻰ ﺃﺣﺪ ﺍﻟﺘﺄﻭﻳﻠﻴﻦ .

ﻭﻓﻲ ﻗﻮﻝ ﺷﻌﻴﺐ : (ﺇﻻ ﺃﻥ ﻳﺸﺂ ﺍﻟﻠﻪ ﺭﺑﻨﺎ) ﺗﻘﻴﻴﺪ ﻋﺪﻡ ﺍﻟﻌﻮﺩ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﻜﻔﺮ ﺑﻤﺸﻴﺌﺔ ﺍﻟﻠﻪ ﻭﻫﻮ
ﻳﺴﺘﻠﺰﻡ ﺗﻘﻴﻴﺪ ﺍﻟﺪﻭﺍﻡ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﺒﺌﺎﻥ ﺑﻤﺸﻴﺌﺔ ﺍﻟﻠﻪ ﻟﺄﻥ ﻋﺪﻡ ﺍﻟﻌﻮﺩ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﻜﻔﺮ ﻣﺴﺎﻭﻯ ﻟﻠﺒﺌﺎﺕ ﻋﻠﻰ
ﺍﻟﺒﺌﺎﻥ ﻭﻫﻮ ﺗﻘﻴﻴﺪ ﻣﻘﺴﻮﺩ ﻣﻨﻪ ﺍﻟﺘﺄﺩﺏ ﻭﺗﻔﻮﻳﺾ ﺍﻟﻌﻠﻢ ﺑﺎﻟﻤﺴﺘﻘﺒﻞ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﻠﻪ ﻭﺍﻟﻜﻨﺎﻳﺔ ﻋﻦ ﺳﺆﺍﻝ
ﺍﻟﺪﻭﺍﻡ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﺒﺌﺎﻥ ﻣﻦ ﺍﻟﻠﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ ﻛﻘﻮﻟﻪ (ﺭﺑﻨﺎ ﻻ ﺗﺰﻍ ﻗﻠﻮﺑﻨﺎ ﺑﻌﺪ ﺃﻥ ﻫﺪﻳﺘﻨﺎ) .
ﻭﻣﻦ ﻫﻨﺎ ﻳﺴﺘﺪﻝ ﻟﻘﻮﻝ ﺍﻟﺄﺷﻌﺮﻱ ﻭﺟﻤﺎﻋﺔ ﻋﻠﻰ ﺭﺃﺳﻬﻢ ﻣﺤﻤﺪ ﺑﻦ ﻋﺒﺪﻭﺱ ﺍﻟﻔﻘﻴﻪ ﺍﻟﻤﺎﻟﻜﻲ ﺍﻟﺠﻠﻴﻞ
ﺃﻥ ﺍﻟﻤﺴﻠﻢ ﻳﻘﻮﻝ : ﺃﻧﺎ ﻣﺆﻣﻦ ﺇﻥ ﺷﺂ ﺍﻟﻠﻪ ﻻ ﻳﻌﻠﻢ ﻣﺎ ﻳﺨﺘﻢ ﻟﻪ ﺑﻌﺪ ﻭﻳﻀﻌﻒ ﻗﻮﻝ ﺍﻟﻤﺎﺗﺮﻳﺪﻱ
ﻭﻃﺎﺋﻔﺔ ﻣﻦ ﻋﻠﻤﺎﺀ ﺍﻟﻘﻴﺮﻭﺍﻥ ﻋﻠﻰ ﺭﺃﺳﻬﻢ ﻣﺤﻤﺪ ﺑﻦ ﺳﺤﻨﻮﻥ ﺃﻥ ﺍﻟﻤﺴﻠﻢ ﻻ ﻳﻘﻮﻝ : ﺃﻧﺎ ﻣﺆﻣﻦ ﺇﻥ ﺷﺂ
ﺍﻟﻠﻪ ﻟﺄﻧﻪ ﻣﺘﺤﻘﻖ ﺃﻧﻪ ﻣﺆﻣﻦ ﻓﻼ ﻳﻘﻮﻝ ﻛﻠﻤﺔ ﺗﻨﺒﺌﻰ ﻋﻦ ﺍﻟﺸﻜﻚ ﻓﻲ ﺇﻳﻤﺎﻧﻪ